عواقب العِـــــــصْيَان

مختار من كلام الإمام ابن القيم الجوزية – رحمه الله-.

بسمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحَيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبيِّنا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد ذكر الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه الماتع: (الداء والدواء) أن من أسباب ترك المعاصي.

ولقد ذكرتها مختصرة.

قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناتج منها، ثم قال: ومن هذه العواقب والأضرار السيئة وآثارها: سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعريه من زينته بالثوب الذي جمله الله وزينه به، والعصرة التي تناله، والقسوة والحيرة في أمره، وتخلي وليُّه وناصره عنه، وتولي عدوه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعدّاً له عنه، ونسيان ما كان حاصلاً له أو ضعفه ولا بد، ومرضه الذي استحكم به فهو الموت ولا بد، فإن الذنوب تميت القلوب.

ومنها: ذلَّة بعد عزِّة.

ومنها: أنه يصير أسيراً في يد أعدائه بعد أن كان ملكاً متصرفاً يخافه أعداؤه.

ومنها: أنه يضعف تأثيرُه، فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج، فلا رعيته تطيعه إذا أمرها، ولا ينفذ في غيرهم.

ومنها: زوالُ الأنس والاستبدال به وحشةً، كَّما ازداد إساءةً ازداد وحشةً.

ومنها: زوال الرضا واستبداله بالسخط.

ومنها: زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده، واستبدال الطرد والبعد منه.

ومنها: وقوعه في بئر الحسرات؛ فلا يزال في حسرة دائمة، كلّمَا نال لذة نازعته نفسُه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما يقد عليه، وكلّمَا اشتدَّ نزوعه وعرف عجزه اشتدَّت حسرته وحزنه. فيا لها ناراً قد عُذِّبَ بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة!

ومنها: فقره بعد غناه. فإنَّه كان غنياً بما معه من رأس مال الإيمان، وهو يتَّجر به ويربح الأرباح الكثيرة؛ فإذا سُلب رأس ماله أصبح فقيراً معدماً. فإلى أن يسعى في تحصيل رأس مالٍ آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير، قد فاته ربح كثير، بما أضاعه من رأس ماله.

ومنها: نقصان رزقه، فإنَّ العبد يُحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ومنها: زوال المهابة والحلاوة لتي ألبسها بالطاعة، فتبدل بها مهانةً وحقارة.

ومنها: حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس.

ومنها: ضياع أعزِّ الأشياء عليه وأنسها وأغلاها، وهو الوقت الذي عوض منه، ولا يعود عليه أبداً.

ومنها: طمعُ عدوه فيه، وظفرُه به. فإنه إذا رآه منقاداً له مستجيباً لما يأمره به اشتدَّ طمعه فيه، وحدث نفسه بالظفرة به وجَعْلِه من حزبه، حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق.

ومنها: الطَّبع والرَّيْن على قلبه. فإن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتةٌ سوداءٌ، فإن تاب منها صُقِلَ قلبُه؛ وإن أذنب ذنباً أخر نُكِتَ فيه نكتةٌ أخرى، ولا تزال حتى تعلو قلبه؛ فذلك هو الران. قال تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين:١٤]

ومنها: أنه يُحرَم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإنَّ الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بدَّ.

ومنها: أنها تمنع قلبه من ترحِّله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة. فإن القلب لا يزال مشتتاً مضيعاً حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل في الآخرة، فإذا نزل فيها اقبلت إليه وفودُ التوفيق والعناية من كل جهة،

واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده.

وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضُرها فالتعبُ والعناءُ والتشتت والكسل والبطالة لازمةٌ له لا محالة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه. فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه، فأعرضت عنه ملائكته وعبادُه. كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه.

ومنها: أن الذنب يستدعي ذنباً آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر، فستدعيان ثالثاً، ثم تجتمع الثلاثة، فتستدعي رابعاً، وهلم جرّاً، حتى تغمره ذنوبه، وتحيط به خطيئته. قال بعض السلف: (إن من ثواب الحسنةِ الحسنةِ بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئةَ بعدها).

ومنها: علمُه بفوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها. فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا ولذة ما في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم** ﴾ [الأحقاف:٢٠] فالمؤمن لا يُذهب طيباته في الدنيا، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة. وأما الكافر فلأنه لا يؤمن بالآخرة، فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا.

ومنها: علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته. فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى

دار العصاة والجناة. وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها: علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به؛ فبحسب قوَّة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها. وأعمالُ الفجور تهوي به وتجذبه إلى الهاوية، وتجرّه إلى أسفل سافلين؛ وبحسب قوَّة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث تستقر به. قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر:١٠]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء** ﴾ [الأعراف:٤٠]. فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها. وأهل الإيمان والعمل الصالح لمما كانت أبوابُ السماء مفتوحةً لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه، فُتحت لأرواحهم حتى وصلت إلى الله سبحانه، وقامت بين يديه، فحمها، وأمر بكتابه اسمها في علّيّين.

ومنها: خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله. فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهياً للّصوص وقُطّاع الطريق. فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة، إلى خِربةٍ موحشةٍ مأوى اللصوص وقطاع الطرق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟

ومنها: أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحـق بركته في كل شيء من أمر دنياه وآخرته.

فإن الطاعة تجلب للعبد بركات كل شيء، وبالمعصية تمحق عنه كل بركة.

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثارُ الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً.

فخير الدنيا والأخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته.

وبعض الآثار يقول الله تعالى: (**من الذي أطاعني، فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني، فسعد بمعصيتي؟**).